

مقدمة

(١) النقل عن الغرب وسيلة محمد على للإصلاح

بحسب محمد علي إلى مصر ، اللقاء الأول مع الجيوش الأوروبية وأثره ، الموقف بعد خروج الفرنسيين ، المصريون بمختارون محمد علي وأبائهم ، خطته للإصلاح وسط بين الاستعراق والاستغراب ، وسائل الإصلاح : استخدام الأجانب ، عيوب هذه الوسيلة ؛ الاستغناء عن الأجانب وإحلال المصريين محالهم ، إرسال البعثات إلى أوروبا ، إنشاء المدارس

وفد محمد علي إلى مصر ضابطاً صغيراً من ضباط الحملة التركية الإنجليزية التي أتت في مارس سنة ١٨٠١ لإخراج الفرنسيين من مصر ، واشترك محمد علي في معارك كثيرة مع جيوش دول ثلاث : إحداها دولة شرقية متحطمة تسير نحو الفناء ، فجيوشها خليط من شعوب كثيرة متنافرة يعوزها التآلف والانسجام والنظم الحديثة وحسن القيادة ؛ والثانية والثالثة دولتان غربييتان ناهضتان تنافس كل منهما الأخرى في سبيل الاستيلاء على هذه الكنانة لما تتمتع به من ميزات جمة ، ولأنها مفتاح الشرق ، مطمح أنظارهما ، ولموقعها الجغرافي الممتاز ؛ وجيوش هاتين الدولتين تمتاز بنظم حديثة ، وأسلحة جديدة وخطط محكمة ، وقيادة قديرة ، فكان لهذا اللقاء الأول أثر جدي قوي في نفس محمد علي وتفكيره .

فلما جلا الفرنسيون عن مصر ، واستقر محمد علي فيها ضابطاً من ضباط الفرقة الألبانية ، ظل يرقب عن كثب الصراع الذي قام من جديد بين القوى الثلاث : المالك والأتراك والإنجليز ؛ وقدّر محمد علي كل قوة قدرها ، وأيقن أن كل واحدة منها تناضل الأخرى في سبيل أن تفوز هي وتغنى دون أن تعبر هذا البلد وهذا الشعب اهتماماً ، ورأى بشاقب نظره أن هناك — وراء الستار — قوة ظلت كامنة قرابة ثلاثة قرون ، وقد أيقظتها هذه الحملة الفرنسية ، وأن المستقبل لهذه القوة إذا وجدت من يأخذ بيدها . وبقودها إلى الخير .

واتمت هذه المعركة الثلاثية بخروج الإنجليز من مصر أولاً ، ثم بضعف المالك والأتراك ثانياً ، وهنا ظهر محمد علي في صف الشعب ؛ ولحظ الناس — خاصتهم وعامتهم — مواهب هذا الرجل الممتازة وفروا في رجل الحرب الزعيم المفطور على الخير ، ولما اشتد الأمر بينهم وبين الباشا العثماني قالوا له : إننا لا نريد هذا الباشا حاكماً علينا ، ولا بد من عزله من الولاية ، فقال ومن تريدونه يكون والياً ؟ ، قالوا له : لا نرضى إلا بك ، وتكون والياً علينا بشروطنا لما تنوسمه فيك من العدالة والخير ؛ فامتنع أولاً ، ثم رضى ؛

وأحضروا له دكركا ، وعليه قفطان ، وقام إليه السيد عمر والشيخ الشرقاوى فألبساه له ، وذلك وقت العصر ، ونادوا بذلك في تلك الليلة في المدينة ،^(١) .

وانتهى النزاع أخيراً ، واضطر السلطان اضطراراً أن يقر محمد على والياً على مصر ، ومنذ ذلك الحين بدأ هذا الرجل العظيم يظهر الجأؤ أولاً ، ثم أخذ يضع الخطط لإصلاحاته المختلفة ، التي تعتبر — إلى حد ما — استمراراً لما بدأه الفرنسيون في مصر ، والتي التزم فيها سيلا وسطاً ، فلم يلجأ إلى القديم وبتعصب له ، لأنه آمن منذ اللقاء الأول بأن الإصلاح إنما يكون بالنقل عن الغرب ، ولكنه في نفس الوقت لم يأخذ عز الغرب كل شيء ، ولم يعتمد عليه كل الاعتماد ، بل اتخذ بين المستشرقين والمستغربين خطة وسطاً ، بذلك على ذلك أن دماكو ، استشهد بما عمله محمد على في مصر لتأييد مذهب إليه من ضرورة تعليم العلوم الحديثة ، كما أن خصوم دماكو ، من أنصار الثقافة الشرقية استشهدوا أيضاً بمحمد على لتأييد مذهبها إليه من ضرورة وصل حاضر الأمة بغيرها ، فقالوا — وكان حقاً قولهم — إن مصلح مصر يعلم العلوم الحديثة ، ولكنه يعلمها باللغة العربية ... ،^(٢)

تولى محمد على عرش مصر والعلم فيها قد انزوى في أروقة الأزهر ، وصحون بعض المساجد ، وقاعات المكاتب في المراكز والقرى ؛ وكان لعلماء الأزهر — كما يقول رفاعه — اليد البيضاء في اتفاق الأحكام الشرعية ، العملية والاعتقادية ، وما يجب من العلوم الآلية لعلوم العربية الاثنى عشر ، وكالمناطق ، والوضع ، وآداب البحث ، والمقولات ، وعلم الأصول المعتمد ... ،^(٣) ، وكان الأزهر كما يقول : « جنة علم دانية الثمار ، وروضة فهم يانعة الأزهار » ،^(٤) ، وإن كان أستاذه الشيخ العطار قد فقد ثقته بهذه العلوم ، مذهبته علوم الفرنسيين ، وراح يطلب غيرها لنفسه ، وقرأ تلاميذه كتباً غير كتب الأزهر ، وعلوماً غير علوم الأزهر ، وكان يقول : « إن بلادنا لا بد أن تتغير أحوالها ، ويتجدد بها من المعارف ما ليس فيها » ،^(٥) وآمن محمد على بهذا الرأي ، وبدأ يعد العدة لإنشاء المدارس الجديدة ، ولكنه تخير تلاميذه ومعلميها من المعهد القديم — الأزهر — ، واحتفظ لمدارسه الجديدة بالطابع الإسلامي الشرقي ، فكان في نظر أهل

(١) س دس ، من مقدمة الأستاذ شفيق غربال بكتابات تاريخ التعليم في عصر محمد على للدكتور احمد عزت عبد الكريم ؛ والجبرتي ، ج ٣ ، ص ٣٥٠ .

(٢) شفيق غربال ، محمد على الكبير ، ص ٩٦ .

(٣) رفاعه ، مناهج الألباب ، ص ٣٧٢ .

(٤) رفاعه ، تلخيص الأبريز ، ص ٣ .

(٥) على مبارك ، الخطط التوفيقية ، ج ٤ ، ص ٣٨ .

عصره من المصريين « مجدداً لدروس العلم بعد اندراسها ، آتياً في ذلك بما لم تستطعه الأوائل » ، (١) ، كما كان يلقيه الأوروبيون « بمعبد تمدن الإسلام ، وميد تمكن الأوهام » ، (٢) .

بدأ محمد علي في مصر عهداً جديداً ، فقد كانت العلاقات بينه وبين السلطان غير مستقرة ، وكان الجيش الذي وجدته في مصر — إن صح أن يسمى جيشاً — خليطاً عجيباً من سرازم مملوكية ، و فرقة ألبانية ، و شركسية ، إلخ . . . إلخ ، وكانت له أطاع سياسية تتجه إلى إحياء العالم العثماني ، وكان يرى أن هذا الاجاء لا يمكن أن يتم إلا إذا اتخذ لنفسه جيشاً وأسطولا عظيمين قوبلين بينهم في تكوينهما نهج دول أوروبا في تكوين جيوشها وأساطيلها .

ورأى محمد علي بعد هذا أن السياسة الاقتصادية في مصر سياسة خربة يعوزها الإصلاح الشامل في شتى نواحيها ؛ وكان مذهبه في الإصلاح — مصيباً في ذلك أم مخطئاً — أن تضع الحكومة يدها على فروع الانتاج الاقتصادي المختلفة ، من زراعة وتجارة وصناعة ، لتتمكن من إدخال الإصلاح الذي تريد . وكان محمد علي أخيراً في حاجة إلى موظفين إداريين حازمين يفهمون عنه رغبته في الإصلاح ، ويقدرون حالة البلد ، وحاجتها ، ويدلون إماماً تاماً بنواحي الإصلاح الغربي المراد اقتباسه .

وكانت مصر خلواً من هذا الصنف من الرجال ، فاتجه محمد علي أول الأمر إلى استخدام الأجانب ، ولكنه كان يدرك منذ اللحظة الأولى ، أن الاكثار من الأجانب في خدمة الحكومة ليس من الصواب في شيء ، فكثير منهم — على كفايتهم في النظم الحربية والاقتصادية كما عرفتها بلادهم في ذلك الوقت — يجهلون أغراض الحكومة ، وقد يعرفون أعمالها ، عن قصد أو غير قصد ، وقد يجهلون أيضاً ما تحتاجه بلاد ناشئة كصر من تلك النظم الحربية والاقتصادية ، وقد يرجع هذا إلى جهلهم بلغة البلاد ، وعادات أهلها ، وطباعهم ؛ وكان محمد علي لا يثق في كثير منهم ، ويرى أنهم إنما يعملون لمصلحتهم الذاتية قبل أن يعملوا لمصلحة الدولة التي تنفق عليهم ، وأنهم يروج بعضهم لبعض .

هذا إلى النفقات الطائلة التي تنفق عليهم ، فهم يتقاضون مرتبات باهظة ، وكثير منهم يجهلون اللغة العربية ، فيعين لهم مترجمون ليكونوا عوناً لهم في عملهم . وفي الصلة بينهم وبين الحكومة ، (٣) . هذه هي الأسباب التي كانت تعدل بمحمد علي عن الاعتماد على الأجانب أو الإكثار منهم في وظائف الحكومة ، وتدفعه إلى التفكير الجدي السريع في إيجاد حل للإقلال منهم ، ثم لإحلال المصريين محلهم ، ويضاف إلى الأسباب السابقة ما كان يمتاز به كثيرون من هؤلاء من جهل وادعاء واستغلال ، يؤيد

(١) رفاة ، منهاج الألباب ، ص ٣٧٢ .

(٢) رفاة ، في مقدمته لبداية القدماء وهداية الحكماء ، ص ٤ .

(٣) عزت عبد الكريم ، تاريخ التعليم في عصر محمد علي ، ص ٣١ — ٣٢ .

دعرانا هذه مايقوله ، ادوار جوان ، عن الأطباء المرافقين للحملة المصرية على السودان ، قال : « كان يوجد لفيف من أفاقي اليونان والظليان يرافقون الجيش في تنقلاته من مكان إلى مكان منتحلين العلم بالطب ، والحقيقة أنهم كانوا لا يدرون من بساطته شيئاً ، وإنما كانوا من النصابين البارعين في السعودة ، ولقد كان ستة من أولئك الأطباء المزعومين في مقدمة الذين لقوا حتفهم بتلك الأمراض المهلكة ، فكان موتهم بها دليلاً على عجزهم وجهلهم ، وشعورهم^(١) ، وذكر أيضاً « مسيو هامون ، ناظر مدرسة الطب البيطري في مصر في عهد محمد علي عند كلامه عن الأطباء والصيدالة الأجانب الذين ألحقوا بالإدارة الصحية أول انشائها ، أن ثلثهم كانوا لا يحملون دبلومات أو مؤهلات عليية بل إن منهم من كان ممرضا أو مدير مكتب تلغرافي أو صانع أحذية أو ندلا في مقهى بالقاهرة ، ثم قال : « إن أى أجنبي كان ينزل بأرض مصر وليس له مهنة يمتنها كان يعين صيدلياً أو طبيباً »^(٢) .

أدرك محمد علي إذاً كل هذه الأسباب ، وكانت له بصيرة مستشفة ، وعين نفاذة ، وبدأ يفكر كما قلنا في الوسائل التي تمكنه سريعاً من الاستغناء عن هؤلاء الأجانب — أو على الأقل — عن المدعين منهم ، ثم إحلال المصريين محلهم ؛ وقد اتبع لتنفيذ هذا الرأي سبلاً كثيرة :

١ — رأى أولاً أن علوم الغرب ، وحكمته ، وخططه ، ونظمه ، قد سطرت جلها أو كلها في كتبه التي وضعها علماءه ، ومؤلفوه ، فكانت خطته الأولى أن يمهّد السبل لترجمة كثير من هذه الكتب إلى العربية أو التركية ، ليسهل على أبناء البلاد الاطلاع عليها ، والإفادة منها ؛ وقد عهد فعلاً لكثير من الأجانب في مصر — شرقيين وغربيين — بترجمة بعض الكتب ، غير أنهم كانوا يتلكأون ، أو يهملون في عملهم حتى « ليم أحدّم عمل ستة أشهر في خمس سنوات »^(٣) ؛ ومع هذا فقد ترجمت كتب كثيرة في مختلف الفنون ، ولكن هل يستطيع هذا النفر من المترجمين أن يحولوا ماء البحر بكوب ؟ كلا ولو جاء لهم محمد علي بأضعاف أضعافهم عوناً ومداً ، ولهذا أدرك ما يشين هذه الطريقة من بطء ، وما قد يشوبها من أخطاء ترجع إلى اختيار الكتب أو المترجمين ، أو كفاية هؤلاء المترجمين ، ومبلغ معرفتهم بالعلوم التي يترجمون فيها ، أو باللغات التي ينقلون عنها رايها .

٢ — راح محمد علي بعد ذلك يتلّس طريقة أخرى فرأى أن ينقل نفراً من أهل البلد إلى أوروبا — موطن هذه العلوم والنظم — ليدرسوا هذا الذي يريد نقله هناك ، وبلغه القوم ، حتى إذا عادوا لمصر

(١) ادوار جوان ، مصر في القرن التاسع عشر ، ترجمة عبد مسعود ، ص ٦٢١ — ٦٢٢ .

(٢) Hamout. l'Egypte sous Méhémet-Ali, t. II, pp. 108-109.

(٣) عزت عبد الكريم ، تاريخ التعليم في عصر محمد علي ، ص ٣٣ (نقل عن وثائق هابدين)

كانوا عدتها في المستقبل ، وحلوا محل الأجانب في الوظائف المختلفة ، وفي تعليم مائتي الأبناء أمهم ، وفي ترجمة الكتب الغربية ؛ ولهذا أرسل محمد علي البعث إلى أوروبا الواحدة بعد الأخرى ، وعاد الكثيرون من أعضائها وقد أفادوا الفائدة الكبرى ، وحققوا أغراض محمد علي ، وحلوا العناء عن الأجانب ، وأدوا واجهم بإخلاص وأمانة ، وكان محمد علي مع هذا لا يوليهم — بعد عودتهم — الأعمال المختلفة إلا إذا استوثق من مهارتهم ، وكان مقياسه في ذلك أن يقوم كل منهم بترجمة كتاب في الفن الذي اختص فيه ، أما الذين درسوا الصناعة منهم ، فكان يجرهم فيما درسوه ، حتى إذا أظهروا مهارة وكفاية استغنى عن خدمات الأجانب ، وأحل محلهم أهل البلاد في وظائفهم^(١) ، لأنه كان يرى في صرف الأجانب عن المنشآت الجديدة ، وإحلال المصريين محلهم ، صيانة لأموال الحكومة وغفرا لها^(٢) ، وكان يفرح الفرح كله كلما سمع عن نبوغ بعض الضباط المصريين وبعد ذلك ، فألا حسنا للمستقبل ، إذ يعنى الحكومة من استخدام الأجانب^(٣) .

٣ — كان لهذه الطريقة فائدها وجدواها ، فقد عاد الكثيرون من أعضاء البعثات ، وتولوا الكثير من الأعمال والوظائف ، وترجموا الكثير من الكتب ، ولكن جيوش محمد علي وأساطيله تحتاج لمئات الضباط ، والمصانع المتعددة تحتاج لآلاف العمال ، والإصلاح الزراعى ، ومنشآت الرى والهندسة تحتاج لعشرات الخبيرين بهذه الفنون والعلوم الجديدة . . . والمدارس تحتاج لمئات المدرسين المختصين في مختلف العلوم . . . والإصلاح الطبى يحتاج لجيش كبير من الأطباء . . . وهكذا . . . وهكذا . . . فهل يستطيع محمد علي ، أو هل تمكنه ميزانية الدولة أن يبعث هذه الآلاف من المصريين ليتلقوا العلم في أوروبا . ١٩٠

وجد محمد علي أن هذه أيضا طريقة غير عملية ، أو — على الأقل — غير سريعة الإنتاج ، لأنه لو اكتفى بها لاحتاج إلى سنوات وسنوات ، وهو حريص على أن يشمل إصلاحه كل ناحية من نواحي الحياة المصرية ، وفي أسرع وقت ممكن ، لهذا لجأ إلى تجربة رابعة ذات شعبتين :

٤ — (١) فقد عهد إلى الأجانب أن يقوموا — إلى جانب أعمالهم — بتعليم بعض المصريين علومهم وفنونهم حتى إذا أتم هؤلاء تعليمهم خلفوا أساتذتهم في مراكزهم ، فالضباط الأجانب ينظمون فرق الجيش ، ويعلمون الضباط والجند المصريين أو الأتراك ، والأطباء الأجانب يعملون في المستشفيات ، ويعلمون التلاميذ ليكونوا أطباء ، ورجال الصناعة الأجانب يعملون في المصانع ، ويعلمون فهم للصناع سريين . .

(١) و (٢) و (٣) من عبد الكريم ، المرجع السابق ص ٣٣ و ٣٤ (عن وثائق هابدين) .

(ب) ثم رأى محمد على أخيراً أن يبنى المدارس المختلفة لتعليم أبناء البلاد تعليماً رتيباً منظماً ، فأنشأ مدارس الطب والهندسة والزراعة والحريسة ومدرسة الألسن ، ثم رأى أن لا بد من وجود مدارس أخرى لإعداد الملتحقين بهذه المدارس «الخاصة» ، ففتح مدارس «المبتدیان» ، والمدارس «التجيزية» .

بهذه الوسائل جميعاً حاول محمد على أن ينتقل الغرب إلى مصر ليحقق مثله العليا في الإصلاح ، ولكنه لم يحاول البتة أن ينتقل مصر إلى الغرب بل احتفظ لها بروحها وتقاليدها ، بل لقد حاول في كثير من الأحيان أن يمزج بين الخير في العالمين — الشرق والغرب — فأقام النهضة المصرية الحديثة على أسس متينة صحيحة ، ووجهها — منذ عصره حتى الآن — الوجهة الطيبة التي أفادت منها ، والتي لا تزال تعمل للإفادة منها .



ختم محمد علي باشا

(ب) إلى أى الدول الأوروبية اتجه محمد علي عند النقل

الدول الأوروبية ذات الصدارة في مطلع العصر الحديث ، إنجلترا ، علاقاتها مع مصر منذ العصور الوسطى ، لم ابتدء محمد علي عنها ومن فرنسا أولا ؟ ، العلاقات بين مصر وإيطاليا ، اتجاه محمد علي إليها أولا ، أسباب هذا الاتجاه ، استنائه بالإيطاليين في مدارسهم الأولى ، وفي جيشه ؟ البعثات الأولى ترسل إلى إيطاليا ، الكتب الأولى تترجم عن الإيطالية ، معظم الأطباء والعبادة من الإيطاليين ؟ ابتعاده عن إيطاليا واتجاهه إلى فرنسا ، الأسباب ، أثر هذا في الثقافة المصرية في القرن ١٩ ، استفادة محمد علي برجال من دول أوروبا المختلفة

استعان محمد علي — كما ذكرنا — بالأجانب أول الأمر ، وهنا تساؤل : بأي الأجانب استعان ؟ لما لذلك من أثر واضح سيصبح ثقافة مصر بصبغة خاصة طوال القرن التاسع عشر . كانت دول أوروبا صاحبة الصدارة في العصور الوسطى المتأخرة ومطلع العصر الحديث هي : إنجلترا وفرنسا ، وجمهوريات إيطاليا .

أما إنجلترا فلم تفكر يوماً — حتى أواخر القرن الثامن عشر — في أن تكون لها بمصر علاقة ما ، وخاصة من الناحية السياسية ، وذلك إذا استثنينا الدور الذي لعبه الملك « رينشارد » (قلب الأسد) في الحروب الصليبية ، وما كان بينه وبين سلطان مصر وقتذاك صلاح الدين الأيوبي وأخيه الملك العادل أبي بكر من علاقات^(١) صداقة كانت توحى بها روح العصر والمثل العليا لنظام الفروسية السائد في تلك الأيام ، وما كان يتمتع به كل من صلاح الدين و « ريكاردوس » ، من صفات البطولة الصادقة . وبانتهاء تلك الحملة الصليبية انقطعت العلاقات بين مصر وإنجلترا ، حتى إذا كان النصف الثاني من القرن الثامن عشر سمعنا عن مساع كثيرة يبذلها الإنجليز في مصر للعودة إلى استعمال الطريق البري القديم عبر مصر والبحر الأحمر للوصول إلى الهند^(٢) ، لما يمتاز به هذا الطريق من قصر وسرعة تناسب ومبشرات الرغبة في هذه السرعة التي ستكون أهم مميزات القرن التاسع عشر وخاصة بعد الانقلاب الصناعي .

وأحسّت فرنسا في نفس الوقت أهمية مصر في هذه الناحية ، وبدأت المنافسات التحية مع مولد القرن التاسع عشر بين هاتين الدولتين لاحتلال مصر ، وظهرت أروع صور هذه المنافسة في النضال الذي انتهى بإخراج الفرنسيين من مصر سنة ١٨٠١ ؛ وتلكأت الجنود الإنجليزية في مصر بعد خروج الفرنسيين

(١) فصلت هذه العلاقات في بحث لي لم ينشر بعد عنوانه « العلاقات الدولية بين الإسلام والمسيحية في العصور الوسطى » .

(٢) أنظر فيما يتعلق بمحاولات إنجلترا في القرن الثامن عشر : Hoskins, The British Routes to India. ؛ وأظن أيضا :

ملائي عن « مصر وطريق الهند في القرن الثامن عشر » ، القاهره ، سنة ١٩٤٠ و ١٩٤١ .

حتى اضطرت إلى الجلاء بعد قليل ، ثم عاودت محاولتها مرة أخرى سنة ١٨٠٧ ففئت هذه المحاولة بالفشل .
فهل نستطيع أن نقول إن محمد علي يتجه في محاولاته للإصلاح إلى إنجلترا ، أو أن يستعين بالإنجليز ،
ولم يكن في مصر منهم جاليات كبيرة !!

فإذا تركنا إنجلترا إلى فرنسا لا حظنا أن محمد علي قد اشترك في المعارك التي انتهت بإخراجهم من مصر ،
وقد خلصت له مصر بعد عهدهم مباشرة ، فهو يحس تماما ما تركوا في مصر من آثار ، ولكن لعله كان
لا يزال يتخوف منهم ، ثم إن عدد الجالية الفرنسية في مصر قد نقص نقصا كبيرا بعد خروج الحملة ،
فلم يكن من الطبيعي أيضا أن يتجه محمد علي أول ما يتجه إلى فرنسا ، وإن كان سيتجه إليها بعد قليل
لعمامل أخرى .

انحرف محمد علي عن الاتجاه إلى هاتين الدولتين ، والاستعانة برجالهما أول الأمر — رغم ما كان
لهما من زعامة على دول الغرب وقتذاك — واتجه أول ما اتجه إلى إيطاليا والابطالين ، ولذلك أسباب :
فقد ظلت العلاقات التجارية بين مصر وجمهوريات إيطاليا متينة وثيقة طول العصور الوسطى ، وكان
للإيطاليين حتى أوائل عهد محمد علي جاليات كثيرة في ثغور مصر والشام وموانئها ، كما كانت اللغة
الإيطالية هي اللغة الأجنبية الأكثر شيوعا^(١) وتداولها ، بل لقد كانت لغة المخاطبات الرسمية حتى بين
القنصليات غير الإيطالية ، وكان هؤلاء الإيطاليون يعرفون العربية ، كما كان عامة الأهالي في الثغور
المصرية ، وخاصة الاسكندرية ، يتكلمون الإيطالية ، يقول رفاعة عند كلامه عن الاسكندرية
في رحلته إل باريس ، إن أغاب السوق بهذه المدينة ، يتكلم ببعض شيء من اللغة الطليانية^(٢) .

فلما انتهت مذبحه القلعة ، وأصبح أولاد المالك وغلبنهم ملكا لمحمد علي ، بدأ الخطوة الأولى لإصلاح
الجيش ، فأنشأ هؤلاء الغلبان مدرسة في القلعة على نمط مدارس المالك القديمة ، غير أنه كان يدرس
فيها إلى جانب الفنون الحربية اللغات العربية والتركية والإيطالية ؛ فاللغة الإيطالية هي أول لغة أوروبية
قرر تدريسها في مدارس محمد علي .

وسنجد فيما بعد أيضا أن اللغة الإيطالية ستدرس في مدرستي بولاق وقصر العيني ثم في مدرسة
المهندسخانة بيولاقي ، وفي بعض المدارس الحربية في سنها الأولى .

وعند ما فكر محمد علي في إرسال البعث إلى أوروبا ، كانت أولى بعثاته في سنة ١٨٠٩ ، وثانيها
في سنة ١٨١٣ إلى مدن إيطاليا المختلفة : ليفورن ، وميلانو ، وفلورنسا ، وروما . وذلك لدراسة فن سبك
الحروف ، والطباعة ، وبعض الفنون العسكرية وبناء السفن ، ونظم الحكم .

(١) Artin Pacha, l'Instruction Publique en Egypte, p. 69.

(٢) تخلص الأبريز ، ص ٢٦ .

ومن إيطاليا استدعى محمد علي المعلمين للدارس ، والضباط المدربين للجيش ، واشترى آلات الطباعة ، والكتب التي دفعها إلى المترجمين لينقلوها إلى التركية أو العربية ، (١)

وقد ذكر كلوت بك في تقريره عن الطب في مصر الذي قدمه في ديسمبر سنة ١٨٣٧ للدكتور بورنج Bowring ، مبعوث الحكومة الإنجليزية في مصر ، أنه بدأ عمله في مصر والإدارة الصحية يشرف عليها - في معظمها - الإيطاليون ، ثم ذكر في إحصائية صغيرة أن مائة وخمسة من الأطباء والصيدالة في الجيش والمستشفيات العسكرية كانوا من الإيطاليين ، واثنين وثلاثين من الفرنسيين ، وستة من الإنجليز ، وخمسة من الألمان ، وأربعة من البولنديين ، واثنين من الأسبان . (٢)

وعندما استقدم محمد علي بعثة حربية من فرنسا للاشتراك في تنظيم جيشه كتب الجنرال ، بوايه Boyer ، رئيس هذه البعثة إلى صديقه «المسيو جومارد Une. Jomard» عضو المجمع العلمي الفرنسي ، والمشراف على بعثات محمد علي إلى فرنسا فيما بعد - يقول : « وجدت أن إدارة الشؤون كلها في مصر في أيدي الإيطاليين ، واللغة الفرنسية في المحل الثاني ، ولا يعملون في المدارس الحربية سوى اللغة الإيطالية ، ولا يترجمون سوى الكتب البسيطة التي وضعها مؤلفون من ذلك الشعب ، ومدرسو الرياضيات واللغات ، والعلوم ، والفنون ، وغيرها ، كلهم إيطاليون ؛ وفي كل عام يرحل إلى أوروبا ثلاثون أو أربعون شاباً ليعلموا علومها وفنونها ؛ وإلى ، بيزة ، يتجهون حتى في دراسة الفنون الحربية ؛ ويظهر الوالي دهشته من هذا التفوق الإيطالي ، وإنهم ليثبون في ذهنه المخاوف من ناحية الفرنسيين (الخادعين) ، أما من ناحية الإيطاليين فلا يجب أن يخشى شيئاً .. » (٣)

ومن الفقرة الأخيرة من هذا الاقتباس نعلم مبلغ المرارة التي كان يحسها الفرنسيون من تفوق الإيطاليين ولغتهم في حكومة وإدارة ومدارس وجيش محمد علي ؛ ولهذا نلاحظ أن الفرنسيين سيبدلون كل الجهود للقضاء على هذا النفوذ لكي تكون لهم وللغتهم الصدارة بين الأجانب واللغات الأجنبية في مصر ، وقد ساعدتهم على ذلك أن الطوائف الأولى من الإيطاليين لم تكن من العنصر الممتاز ، بل كان معظمهم يشبهون ذلك المليف من الأطباء الذين وصفهم « ادوار جوان » بأنهم كانوا : « من أفاق اليونان والأتليان » ، وذلك في الوقت الذي ترك فيه الفرنسيون القلائل الذين التحقوا بخدمة محمد علي ، وخاصة « الكولونيل سيف » و « كلوت بك » ، أطيب الأثر وأجمله .

(١) عزت عبد الكريم ، المرجع السابق ، ص ٩٠ .

(٢) Bowring, Report on Egypt and Candia, p. 139.

(٣) Douin, une Mission Militaire de Meh. Ali, p. 40. (de Boyer à Jomard, 20 Mars, 1825).

الفاط للدكتور عزت عبد الكريم ، المرجع السابق ، ص ٩٠ - ٩١ .

وهناك عامل شخصي قد يكون له بعض الفضل في التهيؤ لغلبة الفرنسيين على الإيطاليين ، وذلك أن محمد علي كان قد اتصل في شبابه بتاجر فرنسي اسمه المسبوليون^(١) ، وقد أخلص له هذا الرجل الود والإخاء ، وأفاده كثيراً بخبرته في شئون التجارة ؛ كذلك قد يرجع بعض الفضل إلى أن فرنسا كانت تسمى — برجالها وعلمائها وضباطها — إلى مصر وإلى محمد علي سعيًا ، فقد كانت تعتبره منفذاً ومتبعاً لما بدأه علماء الحملة من أبحاث ، ولما بدأته الحملة نفسها من إصلاحات .

وأخيراً لقد كان لمركز فرنسا الدولي الممتاز حينذاك — كدولة من دول البحر الأبيض المتوسط — أثر كبير في إشاحة محمد علي وجهه عن إيطاليا والإيطاليين ، واتجاهه في سياسته الإصلاحية نحو فرنسا والفرنسيين .

نجحت فرنسا في حلبة هذه المنافسة ، وألغيت اللغة الإيطالية شيئاً فشيئاً من المدارس المصرية ، واستغنى عن الضباط والمدرسين الإيطاليين واستعاض عنهم بضباط ومدرسين فرنسيين ، وعدل عن ترجمة الكتب الإيطالية ، وألغيت البعثات الإيطالية ففقدت ترسل — في معظمها — إلى فرنسا ؛ وفي كلية واحدة لقد تحولت مصر عن النقل عن الثقافة الإيطالية إلى النقل عن الثقافة الفرنسية ، وسيكون لهذا أثره الملحوظ كما ذكرنا ، فتظل مصر طول القرن التاسع عشر مصطبغة بالصبغة الفرنسية في شتى نواحيها التفكيرية ؛ غير أنه لزام علينا أن نشير في ختام هذا الموضوع إلى أن محمد علي لم يكن أسيراً لحبه لفرنسا وللثقافة الفرنسية وحدها ، بل كان يحب دائماً أن يستعين برجال كل دولة امتازت في ناحية من نواحي العلم والعرفان ، فكانت من بعثاته بعثات أرسلت للنمسا وإنجلترا ، كما كان يدير بعض مدارسهم ويعلم فيها أفراد من الأسبانيين والإنجليز وغيرهم .

(١) لم ينس محمد علي جيل هذا الفرنسي ، وخاصة عندما وصل إلى قمة مجده ، لقد بحث عنه حتى علم أنه يقيم في مرسيليا ، فأرسل يستدعيه إل مصر ، ولكن الرجل تولى وهو بعد العدة للسفر ، فأرسل محمد علي عشرة آلاف فرنك مديوناً إلى أخته ؛ أنظر : الرافعي ، تاريخ الحركة القومية ، ج ٢ ، ص ٣١٢ — ٣١٣ .